ساعة لا تزال تدق ...

قصة بقلم علي بدور

الموت فكرة قد لا تخطر على البال في أحيان كثيرة .. ولكنها قد ترد في بعض الاوقات التي يكون فيها الانسان غير مستعد لمناقشتها او حتى لمجرد الاحساس بها .

وأنا انسان أفكر بالموت منذ زمن بعيد . لعلي منذ وعيت الحياة وأنا أفكر به . وأتذكر الآن بمنتهى البساطة انني عندما كنت صغيرا وفيما أنا عائد الى المنزل سمعت مناحة بالقرب من منزلنا .. فدخلت مع الداخلين ، لاجد فراشا قد تمدد فوقه رجل طويل مغطى بشرشف أبيض وسمعت صياحا وعويلا .. وعرفت بعد لأي انه انسان ميت . وعلى الرغم من ان منزلنا انذاك كان مجاورا للمقبرة وكانت أمي تقضي عصر أكثر ايام الربيع والصيف والخريف في المقبرة مع صويحباتها من نساء الحي .. ورغم ما كنا نقوم به انا واطفال الحي من لعب فوق القبور .. الا ان الموت كفكرة مجسدة لم تقترن بشيء حسي . الا عندما شاهدت الرجل وهو مسجى وقد غطي بشرشف ابيض .. وزاد هذه الصورة ألما وتعاسة قصة رواها علينا ذات يوم أبي تتلخص بأن أحد اصدقائه توفي فجأة .. ودفن بالمراسم المعتادة ، وفي الليل تفقد اخوه محفظته فلم يجدها وكانت تحوي مبلغا كبيرا من المال وبعض الاوراق الهامة وظن الاخ ان محفظته في القبر لانه تحسسها وهو يعاون في انزال جثة أخيه الميت الى القبر .. فقام لتوه وطرق الباب على حارس المقبرة وكشف القبر .. ولكنه لم يعثر على المحفظة فحسب ، بل وجد أخاه وقد مزق كفنه وجلس القرفصاء في زاوية القبر .. ميتا ، لقد صحا الميت من السكتة القلبية ليجد نفسه في صندوق حجري مغلق عليه الى الابد .. فأماته فزع لا يصور .. وخوف ليس لهوله حدود .

فاذا ما مضيت بأفكاري هذه عن الموت تصورته دائما وقد لبس لبوس انسان ميت مزق كفنه وجلس القرفصاء في زاوية القبر ، واذا تابعت أفكاري هذه حتى النهاية أحسست برياح الخريف تهب علي واشجار السرو المنتصبة فوق القبور تهتز وتتمايل ، وطيور سود تعبر المقبرة وكأنها من الحرس تبعد عن أرواح الموتى ما ينغص عليها سكينة الحياة الثانية والراحة الابدية .

وعندما توفي أبي ، كنت مسافرا . ولا أدري لم خفت مواجهة الموت وجها لوجه هذه المرة .. وعدت من السفر لاجده مدفونا وفوقه تلة من التراب وحجارة مصقولة . ومنذ أن توفي والى اليوم أبعد هذه الخاطرة عن ذهني قدر ما أستطيع رغم ورودها بكثرة في بعض الايام .. لانني أعتقد أن عطف ابي وحنانه لا يعوضان فاذا ما أرخيت لنفسي العنان وتذكرت كل شيء فأنني اعتقد ان شجاعتي سوف أفقدها سريعا وكذلك ارادتي ولا أدري ما سوف يصيبني بعد ذلك .. ولهذا فأنني رغم بلوغي الثلاثين لا أعرف عن الموت الا أشياء بسيطة هي رؤية ميت مسجى وقد غطيت جثته بشرشف أبيض وزيارة المقبرة في المناسبات والتعرف الى الموتى عن قرب ، والحزن الهادىء المستمر على أب مضى وحيدا الى عالمه ..

كانت هذه الافكار تطوف في مخيلتي وانا ألبي نداء احد اقاربي لحضور تشييع جنازة عمي الذي اسلم الروح صباح هذا اليوم .

في الطريق .. كنت احس ان كل شيء يتحرك دون ان يعبر تحركه هذا عن شيء .. حتى ذهابي الى بيت عمي كان من العبث الذي لا معنى له .. ولكنني لا استسلم عادة لاول موجة من مشاعري .. اذ المعول ان اتفحص الموجة الثانية .. فلما اقبلت كان تساؤلا فحسب ! ! من اين ؟ والى اين ؟ ورغم انني لم الق جوابا الا انني حثثت خطاي لاكون على مقربة من الاهل والاصحاب عند تشييع الجنازة الى المقبرة .

ان عمي قد استنفد حياته . عاش ثمانين سنة لم يدخن في حياته مرة ولم يشرب الخمر .. وكل ظني انه كان رجلا مستقيما قنوعا بوظيفته البسيطة يقضي اوقات فراغه في تلاوة القرآن الذي حفظه وتعليم بعض الراغبين حفظه عن غيب . وقد تخرج على يديه عدد لا بأس به من هؤلاء الطلاب الحفظة وكانت له قدرة على الصبر جد عجيبة وكان بين طلابه عدد من العميان .. فكان يتلو عليهم الاية فيعيدها احدهم . ويتلو الثانية وهكذا ، ثم يعيدها ، ويفعل مثله الطالب الى ان يحفظ القرآن كله . لقد كان انسانا صبورا قنوعا ، لم يكن رزقه وافرا ولكنه كان باسما راضيا وكانه في اسعد حالاته .

وخرج عمي محمولا على الاكتاف وسعينا به الى المقبرة .. ووقفت ارقب عملية الدفن بدقة . كان في القبر بقايا انسان .. انها عظام جدي .. ووسدت جثة عمي وهي ملفوفة بالكفن الابيض .. والدفان يقوم بالعمل وكانه لا يحس بما يجري حوله لكثرة ما انزل من الجثث الى اعماق القبور ... وبسرعة ستر الدفان الحفرة بصفائح الحجارة .. ثم اهال عليها التراب وترك عمي وحيدا وسط ظلمة القبر .. ويا لها من ظلمة داجية !

كنت افكر في الموت هذه المرة خلاف تفكيري السابق ... انّ العملية في منتهى البساطة اذ يعيش الانسان قليلا او كثيرا من الاعوام .. ثم يموت بحادث مفاجيء او علة ما ... ويدفن .. وهذا كل شيء .. ومهما خلف الانسان وراءه من ذكرى او عظمة او مجد .. فان ما خلفه سيبقى محصورا بجيله وبمجتمعه . والحياة اليومية قد تصرف الانسان عن حاضره ولكنها كثيرا ما تصرفه عن مستقبله فكيف ستسمح له بان يهتم بالماضي .. وباهله .. وبمن طوته يد الموت منهم بخاصة ؟! في الواقع ان هذا يحدث عادة .. وسرعان ما يشمل النسيان كل شيء ..

وفيما كنت افكر مثل هذه الافكار المتعبة بحيث لم اتقبل الموت تقبلا عاطفيا لا بكي او انشج .. حاولت ان ارقب

الناس الذين تحلقوا حول القبر ، فوجدت بعضهم صامتا، وبعضهم يبكي بهدوء .. وقلة منهم كانوا يبكون بعنف.. وكان بعض هؤلاء الباكين من اصدقاء عمي او من تلامذته الذي انفق سنوات في تعليمهم القرآن .. ووقفت طويلا عند واحد من تلامذته .. لقد امضى مع عمي ثلاث سنين وهو يتردد اليه صباحا ومساء الى ان حفظ القرآن وقامت بينهما علاقة التلميذ باستاذه وقد زادها عمي التلميذ حدة خيال بحيث شعرت ان هذا التلميذ وهو يبكي استاذه كان يبكي في نفس الوقت حظه التعس بان لا يعرف استاذه الا من صوته والا من مصافحة اليد . وقد اثر في نفسي هذا المنظر الى جانب انزال الجثة الى القبر وطمرها بالصفائح والتراب .. ولكنني لا ادري كيف عدت الى الموت من جديد ذلك الذي ينهي كل شيء.: وكانه الساعة التي تكف عن الدق بمجرد ان ينتهي رباطها !

كانت الشمس تميل الى الغروب ورائحة الارض التي شربت كثيرا من ماء السماء تملأ النفس برائحة الحياة .. والمقبرة ترفل في هدوء عجيب .. انه الهدوء الابدي .. وفيما كنت اعود مع المشيعين الى المدينة احسست بدبيب الحياة من جديد. لقد كان المارة يسرعون واصحاب الحوانيت يحدثون الزبائن والاطفال يلعبون والعربات تطلق زماميرها فاشعرني ذلك كله انني اعود الى الحياة بعد رحلة قصيرة الى عالم اخر كله هدوء وصمت !

ولكنني رغم ذلك كله .. فانني لم استطع الخلاص من الصورة المعبرة التي ارتسمت في عيني ونفسي وانا واقف فوق القبر .. لقد كان وجه التلميذ الاعمى وهو يبكي بحرارة وصدق ، استاذه الذي مضى ماثلا امامي بحيث بات صعبا ان تمحوه بسهولة ما اراده من مناظر واناس .. وتساءلت فيما بيني وبين نفسي لماذا لم ابك؟ بينا التلميذ بكى بحرقة والم ، وظل هذا السؤال يتردد في نفسي ساعات وساعات الى ان جاء المساء ودلفت الى المنزل فالفيت فيه هدوءا عجيبا وراحة لا تعوض .

حرصت جهدي ان اكتم خبر الوفاة عن امي.. انها امرأة تحزن بسرعة . وتبكي في كل وقت طبعا انني لم اكتم الخبر عنها لهذه الاسباب فحسب .. بل فعلت ذلك لانها مريضة .. وانا الوحيد الذي قدر عليه ان يداريها ، فلم اشأ ان اثقل عليها بخبر الوفاة ، لابعد ـ قدر ما استطيع ـ فكرة الموت عن بالها .

انني منذ اعوام عديدة وانا اخاف ان تذهب هذه الام ايضا كما ذهب عمي اليوم .. وعلى الرغم من ان الخوف في مثل هذه الحالات لا يجدى او يفيد اذا وقفت ساعة الانسان عن الدق بعد ان ينتهي رباطها، فانني وبشكل عاطفي ليس له مبرر عقلي اعتقدت منذ مدة طويلة ولا ازال بانها ستعيش ابدا .. لعدم استطاعتي تصور ذهابها وبقائي وحيدا بعدها

شعرت بضيق شديد .. البيت مقفر ليس فيه احد يستطيع الكلام سوى هذه الام ... ولكنها نائمة وهي في نومها ساكنة . مطمئنة ، وقد اعتدت ان اوقظها كلما عدت من السهرة ولو كانت نائمة ، فاحدثها وتحدثني ولو بضع كلمات ريثما اغير ثيابي واقذف بنفسي في السرير البارد .. وحيدا .

عاودتني صور الموت في الظلمة ... كانت صورا لامعة ابرزها الكفن الابيض الذي لفت به جثة عمي ووجه التلميذ الباكي.. حاولت جهدي ان ابعد هذه الصور عن عيني ومخيلتي فلم استطع .. تمنيت لو كان الى جانبي انسان اخر احدثه فلم اجد سوى امي التي عادت الى النوم من جديد .

ولا ادري كيف سمعت صوت انسان باك ... حسبت ان الامر مجردوهم .. ولكنه كان حقيقة .. انه يبكي فعلا وعلى مقربه مني... وتأكدت بعد لحظات ان ذلك الانسان هو التلميذ الذي كان ينشج فوق القبر اكثر مما يستطيع.. ولاول مرة في حياتي اعتراني حزن رقيق صاف ، بحيث صرفني عن التفكير وترك لنفسي حرية التصرف بما فيها من عواطف ومشاعر ، وبما ينتابها من افراح واحزان .

كانت السماء مضيئة بنجومها والقمر سيد النجوم مسمر امام نافذتي وامي تغط في نوم عميق ، وبي من الخوف عليها أكثر مما أطيق التعبير عنه .. والموت مثل الممثل العبقري الذي انفرد بالمسرح فاخذ يخطر فوقه .. وهو يغير في كل دقيقة ثيابه ، ويحظى باهتمام النظارة اولئك الذين يفدون على الحياة حتى اذا استهواهم الممثل وقام احدهم ليراه عن قرب من خلف الكواليس مضى دون ان يعود !

واحسست بضيق خانق لم استطع التعبير عنه الا بدموع صامتة لست ادري كيف طفقت اتحدث بها الى نفسي .. دون ان ادقق كثيرا على بواعثها واسبابها اذ كان يكفيني ان اطرد هذه الالام عن نفسي فلم تجد الالام غير عيني منفذا لها .

استرحت بعض الشيء .. وعاودني التفكير من جديد ، في معنى هذه الدموع أهي من اجل ابي الذي مات دون ان اكون حاضرا تشييعه ؟ ام من اجل ذلك العم الذي مضى اليوم ؟ ام لخوفي على هذه الام المريضة التي قد تمضي دون ان اكون مستعدا لوداعها في الوقت المناسب ؟.. وخاصة اذا كان رحيلها فجائيا كما لو ان ساعة وقفت عن الدق لان رباطها قد انتهى ..

ووقفت في تفكيري مدة اطول وانا ابحث عن سبب ابرز فيه دموعي ، فوجدتني احدق من خلال الظلمة في وجه التلميذ الباكي بلحيته السوداء. وادركت ولو بوقت متأخر ان اكثر دموعي كانت لاجل ذلك التلميذ الذي بكى ساعات صادقة من الود قضاها في صحبة استاذه .

وابتسمت رغم كل شيء. لانني شعرت ان الحياة جميلة .. واجمل ما فيها ان الانسان يستطيع ان يبكي بصدق تلك الساعات الصافية التي تمر به وهو يعيش حياته مع الاخرين .

وزادت طمأنينتي عندما تلفتُ الى جانبي فوجدت امي المريضة وهي تغط في النوم وابتسمت ثانية لان ساعتها كانت لا تزال .. تدق !

علي بدور

مكتبة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا احدث المطبوعات العربية ، وكذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .